[٣]

الافتراء على رب العالمين

فيما يتعلق بمقام العقل فى الإيمان الإسلامى، وفى الفكر الإسلامى.. فلقد تجاهل عظيم الفاتيكان الذى درس الفلسفة ودرَّسها -أن الله- سبحانه وتعالى- فى الإيمان الإسلامى من أسمائه ﴿الْحَكِيمُ﴾ .. وأنه هو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ و﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.. وأنه هو الذى [أنزل الكتاب والحكمة].. وأنه -سبحانه وتعالى- إنما بعث رسوله محمدًا ﷺ ليعلم الناس ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.. وحتى نساء النبى ﷺ أشار القرآن الكريم إلى ما يتلى فى بيوتهن ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.. وأن ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾..

﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] - ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]- ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢٤]- ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]- ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]- ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ولقد ورد فى القــرآن الكريم وصف الذات الإلهيــة بالحكيم فى مائة آية من آيات هذا القــرآن. . كمــا وردت فيــه الآيات التى تتحــدث عن العقل والتعقل فى ٤٩ آية. .

وعن القلب، كأداة للتعقل، فى ١٣٢ آية. .

وعن الفقه، بمعنى الوعى العقلى، فى ٢٠ آية. .

وعن الحكمة فى ١٩ آية. .

وعن التفكر فى ١٨ آية. .

وعن اللب، بمعنى العقل والجوهر الإنسانى، فى ١٦ آية. .

وعن الاعتبار، بمعنى التعقل، فى ٧ آيات. .

وعن التدبر فى ٤ آيات. .

وعنى النُّهى، بمعنى العقل، فى آيتين. .

أى أن القرآن الكريم- الذى هو معجزة عقلية، تستنفر العقل للتعقل، ولا تدهشه، كالمعــجزات المادية، فتشله عن العمل- قد جــاء فيه الحديث عن العقل والحكمة فيما يقــرب من ثلثمائة آية. . وذلك فضلا عن مائة آية ورد فيها -بالنص- وصف «الحكيم» كواحد من أسماء الله الحسنى.

بل لقــد جعل القرآن الكــريم تنكب العقــلانية والتــعقل السبــيل إلى جهنم- والعــياذ بالله - ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك: ١٠، ١١].

● ثم.. ألم يسمع عظيم الفاتيكان أن رسول الإسلام ﷺ قد قال: «العقل أصل دينى»..

وقال: «عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهدًا»- رواه الدارمى..

● وألم يقرأ لابن رشد [٥٢٠-٥٩٥هـ-١١٢٦-١١٩٨م]- الذى أخرجت عقلانيته الإسلامية أوربا من خرافات اللاهوت الكنسى- كيف جعل «دليل العناية والرعاية» -وهو قمة الحكمة والعقلانية- دليلا على وجود الله- سبحانه وتعالى-؟..

وكيف أعلن أن «الحكمة» هى الأخت الرضيعة «لشريعة الإسلام»؟.

● وألم يسمع -عظيم الفاتيكان- عن المعتزلة والتيار العقلانى فى الفكرى الإسلامى والفلسفة الإسلامية، الذين تجاوزوا ماااتفق عليه غيرهم من المسلمين من أن الله -سبحانه وتعالى- لا يجوز عليه ولا يليق به- لفرط الحكمة المطلقة فى مشيئته وفعله- إلا فعل الصلاح والأصلح .. تجاوز المعتزلة ذلك، فأوجبوه على الله!!..

ولقد استندوا فى ذلك إلى فهمهم للقرآن الكريم، الذى جاء فيه أن الله -سبحانه وتعالى- قد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

وألم يقرأ- عظيم الفاتيكان- ما كتبه حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠-٥٠٥هـ-١٠٥٨-١١١١م]- وهو أستاذ للعديد من الفلاسفة

obeikandl.com

والقديسين المسيحيين- عن العلاقة العضوية بين العقلانية وبين الشرع والقرآن فى الإسلام.. وكيف شبه العقل بنور البصر، والشرع بنور الشمس وضيائها.. ومن ثَمَّ حكم بأنه لا قيمة لأى منهما إذا انقطع عن الآخر.. وقال:

«إنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول.. فمثال العقل: البصر السليم من الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. والمستغنى بأحدهما عن الآخر إنما يكون فى غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان! فالعقل مع الشرع نور على نور[1].. وأنَّى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر البحث والنظر؟

أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر؟..

إن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها[2].. وعند إشراق نور الحكم يصير الإنسان مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرى أن يسمى القرآن

---

(١) حجة الإسلام الغزالى [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٢، ٣. طبعة مكتبة صبيح- القاهرة. بدون تاريخ.

(٢) الغزالى [مشكاة الأنوار] ص ٣٦. طبقة القاهرة ١٩٠٧م.

نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً، فمثال القرآن: نور الشمس،ومثال العقل: نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].. وما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول[١].. والوحى الإلهى والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل[٢].. فلهذا كان رأسمال كل السعادات العقل»[٣]..

وقول الغزالى -كذلك- فى شرح الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] «فكان من أعظم ما شرفه به الله وكرمه: العقل، الذى تنبه به على البهيمة، وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر فى مخلوقاته، والاستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من حكمة»[٤].

● وألم يعلم- عظيم الفاتيكان-أن الإسلام قد جعل «الشك المنهجى» علمًا.. وأوجب تعلمه.. لأنه هو الطريق إلى اليقين.. حتى قال الجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ ٧٨٠-٨٦٩م]:

«فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلَّم الشك فى المشكوك فيه تعلمًا، فلو لم يكن فى

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص٢، ٣، ١٢٢.

(٢) الغزالى [المضنون به على غير أهله] ص ٣١٨. طبعة القاهرة- ضمن مجموعة [القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى]- مكتبة الجندى- بدون تاريخ.

(٣) الغزالى [رسالة الغزالى إلى ملكشاه] ص ٦٩- طبعة القاهرة ١٩٠٧م.

(٤) الغزالى [أسرار المخلوقات] ص ٧٧. طبعة تونس ١٩٩٠م.

ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك. فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل، وللأمور حكمان: ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة»[1].

● وقول الماوردى [٣٦٤-٤٥٠هـ-٩٧٤-١٠٥٨م]:

«إن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئان: أحدهما: علم الحس، وهو العقل؛ لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول. وثانيهما: معرفة لسان العرب- وهو معتبر- فى حجج السمع خاصة-..»[2].

● وقول القرافى- أحمد بن إدريس- [٦٨٤هـ١٢٨٥م]:

«.. والقاعدة المعلومة: أن الشرع لا يرد بخلاف العقل، بل جميع واردات الشرائع يجب انحصارها فيما يجوِّزه العقل وجودًا وعدمًا، فيرد الشرع بترجيح أحد طرفيه، وجوده أو عدمه، أو يسوى بينهما، وهو الإباحة»[3].

وقول القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥هـ١٠٢٤م]:

«إن الأدلة، أولها: دلالة العقل؛ لأن به يميز بين الحسن والقبيح؛ ولأن

---

(١) الجاحظ [الحيوان] جـ١، ص٣٥-٣٧، جـ١، ص٢٠٢. تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة- الثانية.

(٢) الماوردى [أدب القاضى] جـ١. ص٢٧٤، ٢٧٥. طبعة بغداد ١٩٧١م.

(٣) القرافى [كتاب الأمنية فى إدراك النية] ص٥٢٣.

به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع. ولربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هى: الكتاب، والسنة، والإجماع، فقط. أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر. وليس كذلك؛ لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل؛ ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع، فهو أصل فى هذا الباب. وإن كنا نقول: إن الكتاب هو الأصل، من حيث إن فيه التنبيه على ما فى العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام. وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه، ومن يحمد ومن يُذم؛ ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له. ومتى عرفنا، بالعقل، إلهًا منفردًا بالإلهية، وعرفناه حكيمًا، نعلم فى كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسلا للرسول، ومميزًا له بالأعلام المعجزة، من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة. وإذا قال ﷺ: «لا تجتمع أمتى على خطأ.. وعليكم بالجماعة».. علمنا أن الإجماع حجة»[1].

● وإذا كان بابا الفاتيكان قد جعل موضوع محاضرته عن علاقة الإيمان بالعقل..

فكيف جهل أن فلاسفة الإسلام- ومنهم أبو على الجبائى [٢٣٥-٣٠٤هـ-٨٤٩-٩١٦م]- قد قالوا: «**إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر**».

---

(١) القاضى عبد الجبار [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ١٢٧. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس ١٩٧٢م.

بل وقال الفيلسوف أبو هاشم الجبائى [٢٤٧- ٣٢١هـ- ٨٦١-٩٣٣م]: «**إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك**»![١] . . وذلك انطلاقًا من التأصيل القرآنى لمنهاج «الشك المنهجى»: ﴿**أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠] . .

● وحتى شيخ الإسلام، وإمام السلفية ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ-١٢٦٣-١٣٢٨م] الذى جعل عنوان كتابه [درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول] . . رأيناه يعلن: أن «**الحنفية وكثير من المالكية والشافعية والحنبلية يقولون بتحسين العقل وتقبيحه، وهو قول الكرامية والمعتزلة، وهو قول أكثر الطوائف من المسلمين**»[٢] أى أن أغلب تيارات الفكر الإسلامى- الفلسفية والفقهية- تجعل العقل مرجعية للتحسين والتقبيح . .

● وإذا كان عظيم الفاتيكان -وأستاذ الفلسفة- قد جهل هذا التراث الفلسفى الإسلامى القديم . . فكيف جهل تراث الإسلام الفلسفى الحديث- فى العقلانية الإسلامية- والذى قال فيه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ-١٨٣٨-١٨٩٧م]:

«**إن الدين الإسلامى يكاد يكون متفردًا بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية، والقدح فى سيرتهم.**

---

(١) دكتور على فهمى خشيم [الجبائيان أبو على وأبو هاشم] ص٣٣٣. طبعة طرابلس-ليبيا ١٩٦٨م.

(٢) ابن تيمية [الفتاوى] ج٨. ص٤٢٨، ٤٣٣. طبعة الرياض ١٣٨١م.

obeikandi.com

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نورالبصيرة..وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه فى هذه المزية. وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصية الجليلة.

إن العقل مشرق الإيمان، فمن تحوّل عنه فقد دابر الإيمان.

وإن فرقًا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عِزَّته، أما الثانى فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!

لقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات!.. لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة.. والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحه.. والحكمة، وآلتها العقل، هى مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة، فهى قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهى أشرف الصناعات..

إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وإطلاق سراح العقل إلى

تصديق تصـــوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنًا، وما صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة...[1].

إن أول ركن بنى عليه الدين الإسلامى: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابًا كثيفًا يحول بيه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم،وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستارًا لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة، والخوف مما لايخيف، والفزع مما لا يفزع..

إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس.. وقرر المزايا على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة.. وعقائد الأمة- وهى أول رَقْم ينقش فى ألواح نفوسها- يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى مطالعة الظنون فى عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقدًا لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنًا، فلا يكون مؤمنًا.. وأولئك المتبعون للظن، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عندما

(١) جمال الدين الأفغانى [الأعمال الكاملة] ص١٧٧، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٥. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة ١٩٦٨م.

تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم.

هذا هو الإسلام..»[1]

● ألم يقرأ عظيم الفاتيكان- وأستاذ الفلسفة- شيئًا من هذا الذى كتبه فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغانى.. عن تفرد الإسلام- دون غيره من الأديان- بالعقلانية.. وشهادة خصومه له بهذا التفرد؟!..

وهل يجوز لمثله -ممن يتصدى للحديث عن موقف الإيمان الإسلامى من العقل والعقلانية- أن يجهل هذه «المقالات» الشهيرة - حتى فى اللغات الغربية- عن العقلانية الإسلامية؟!..

ثم.. ألم يسمع بابا الفاتيكان عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦- ١٣٢٣هـ-١٨٤٨-١٩٠٥م]- وهو الذى وضعت حول فكره وإبداعاته العديد من الرسائل الجامعية التى كتبها لاهوتيون غربيون.. والذى راسل وحاور العديد من فلاسفة الغرب ومفكريه.. من «تولستوى» [١٨٢٨-١٩١٠م] إلى سبنسر [١٨٢٠-١٩٠٣م] إلى هانوتو [١٨٥٣-١٩٤٤م].. وغيرهم.. وهو الذى صاغ فى العقلانية الإسلامية المتفردة مقالا نفيسًا، قارن فيه بين عقلانية الإسلام ولا عقلانية عقيدة بابا الفاتيكان!!..

---

(١) الأفغانى [الآثار الكاملة] جـ١. ص ٤٢، ٤٣. جمع وإعداد: هادى خسرو شاهى. تقديم: دكتور محمد عمارة طبعة القاهرة ٢٠٠٢م.

ألم يسمع البابا بنديكتوس السادس عشر بما كتبه محمد عبده عن:

«أن الإنسان: كون عقلى، سلطان وجوده العقل، فإن صلح السلطان ونفذ حكمه، صلح ذلك الكون وتم أمره.. والعقل من أجلّ القوى ، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون صحيفته التى ينظر فيها، وكتابه الذى يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه..

والعقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقية..

ولقد تآخى العقل والدين - [فى الإسلام]- لأول مرة فى كتاب مقدس، على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه-: إن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، كالتصديق بالرسالة نفسها..

كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل..

وأول أساس وضع عليه الإسلام: هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل،ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

بلغ هـذا الأصل بالمسلمـين أن قـال قـائلون من أهل السـنة: إن الذى يستـقصى جهـده فى الوصول إلى الحق، ثم لـم يصل إليـه، ومات طالبًا غـير واقف عند الظن، فـهو ناج. فـأى سعـة لا ينظر إليهـا الحرج أكـمل من هذه السعة؟

ولقد اتفـق أهل الملة الإسلاميـة- إلا قليلا ممن لا ينظر إليـه- على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنـقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهـمه، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه، والطريق الثـانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قـوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وإنه لا يقـين مع التحرج مـن النظر، وإنما يكون اليقـين بإطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد.

فـالله يخاطب- فى كـتابه- الفـكر والعقل والعلم بدون قـيد ولا حـد. والوقوف عند حـد فهم العبارة مضـر بنا، ومناف لما كتبه أسـلافنا من جواهر المعقـولات.. والقرآن قـد دعا الناس إلى النظر فـيه بعـقولهم، فهـو معـجزة عـرضت على العـقل، وعـرفتـه القـاضى فـيـها، وأطلقـت له حق النظر فى أنحائهـا، ونشر ما انطوى فى أثـنائها.. فالإسـلام لا يعتمـد على شىء سوى الدليل العـقلـى، والفكر الإنسـانى الذى يجـرى على نـظامـه الفطرى، فـلا يدهشك بخارق للعـادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غـير معتـادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوى، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ..

والمرء لا يكون مؤمـنًا إلا إذا عقل دينه وعرفـه بنفسـه حتى اقتـنع به، فمن رُبِّيَ على التسليم بغير عقل، والعمل - ولو صالحًا- بغير فقه فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس القصـد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخـير كما يذلل الحـيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه، فيعمل الخـير؛ لأنه يفـقه أنه الخـير النافع المرضـى لله، ويترك الشـر؛ لأنه يفهم سـوء عاقبته ودرجة مضـرته فى دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلا مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلا هو دونه!.

وإن القول بنفى الرابطة بين الأسباب والمسببات جدير بأهل دين ورد فى كتابه أن الإيمان وحده كـاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك، فيتـحول الجبل!.. يليق بأهل دين تعد الـصلاة وحدها -إذا أخلص المصلى فيها- كـافية فى إقداره على تغيير سـير الكواكب وقلب نظام العالم العنصرى!.. وليس هذا الدين هو دين الإسلام!.

دين الإسـلام هو الذى جـاء فى كـتـابه: ﴿ وَقُلِ اعْـمَلُوا فَـسَـيَرَى اللَّهُ عَـمَلَكُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٥]- ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]- ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢] وأمثالها.

وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع مـا بين حوادث الكون من الترتيب فى السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله!.

إن لله فى الأمـم والأكـوان سننًا لا تـتبـدل.. وهى التى تسـمى شرائع أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البـشرية وما يحدث فيها، هو نظام

واحد لا يتغير ولا يتبدل. وعلى من يطلب السعادة فى المجتمع أن ينظر فى أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، ويبنى عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع فى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكر، وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سننًا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة، لتقديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة -فى مجموعها- أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه، كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم والفنون التى أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه فى مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير فى الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها..

وبهذا الأصل، الذى قام عليه الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى ﷺ مهدت بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد..».

وبعد هذا «المقال فى العقلانية الإسلامية»، التى تفرد بها الإسلام دون سائر الديانات.. ينبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على تميز هذه العقلانية الإسلامية بأنها «عقلانية مؤمنة» تميزت بالوسطية الإسلامية الجامعة بين «العقل» و«الوحى»- بين «السنن الكونية: كتاب الله المنظور» وبين «آيات الوحى والشرع: كتاب الله المسطور».. فهى بريئة من «اللاهوت الخرافى» براءتها من «الغرور العقلانى».. بريئة من العقلانية المجردة من النقل - كما كان الحال فى الحقبة الإغريقية- وبريئة من العقلانية المادية الوضعية التى جاءت -فى النهضة الأوربية- ثورة على اللاهوت اللاعقلانى.. ولذلك، ضبط الإمام محمد عبده هذه العقلانية الإسلامية المؤمنة.. عندما قال:

«.. فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة، اللهم إلا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم بأصابع الأجيال:

وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح إلا النهى!..

إن مجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعًا، ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، وينهدم بناؤها، ويفقد ما قصد بوضعها..

وإذا قدّرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى.. أما الوصول إلى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته..

ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجًا إلى معين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة..

فالعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل، فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعبادات..

والذى علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد، والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه..»[(1)].

● وعلى هذا الدرب.. درب العقلانية الإسلامية، المتميزة بإعلاء مقام العقل، مع الوسطية التى تجمع بين العقل لعالم الشهادة، والإيمان بالنقل المصور لعالم الغيب.. أى العقلانية الجامعة بين العلم والغيب.. على هذا الدرب يسير الشيخ حسن البنا [١٣٢٤-١٣٦٨هـ-١٩٠٦-١٩٤٩م] عندما يقول:

«إن الإسلام لم يحجر على الأفكار، ولم يحبس العقول.. بل جاء يحرر العقل، ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص١٦٥، ٢٧٧. وجـ٥ ص٤٢٨. وجـ٣ ص٢٩٨، ٢٨٢، ١٥١، ٢٧٩-٢٨١. وجـ٤ ص٤١٤. وجـ٣ ص٥٠٢، ٢٨٤. وجـ٥ ص٩٤، ٩٥. وجـ٣ ص ٢٨٢، ٣٩٩، ٤١١، ٣٧٩، ٣٩٧، ٣٢٥، ٣٦٥. ولمزيد من نصوص الإمام محمد عبده فى العقلانية، انظر كتابنا [الإصلاح بالإسلام] ص٨٣-١١٦، ١٢٣-١٤٢، ١٥١-١٦٣ طبعة القاهرة ٢٠٠٦م. وكتابنا [مقام العقل فى الإسلام]، طبعة نهضة مصر -القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

بالصالح النافع من كل شيء.. «والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها».

«وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار..

ولقد تذبذب تاريخ العقل البشرى بين:

١- طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب.

٢- وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول.

وكلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح، وغلو فاحش، وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان، فلقد جاء الإسلام الحنيف يفصل القضية فصلا حقاً.. فجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل..

إن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحي يبعث فى النفوس مراقبة الله.. فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء، وتنتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات.. فإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين العقليتين: الغيبية والعلمية ندعو الناس»[1].

---

(١) حسن البنا [الرسائل] ص٢٩٤، ٢٧٠، ٢٧١، ١١٠-١١٢ طبعة القاهرة -دار الشهاب- بدون تاريخ.

هكذا تبلورت فى الإسلام -الدين.. والحضارة.. والتاريخ- عقلانية مؤمنة متميزة عن غيرها من العقلانيات التى عرفتها شرائع أخرى.. وحضارات أخرى..

- فالإنسان كون عقلى.. سلطان وجوده العقل..

- والعقل هو جوهر الإنسان.. ومن أجلّ القوى الإنسانية.. بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها..

- ولقد تآخى العقل والدين فى القرآن لأول مرة فى تاريخ الشرائع السماوية..

- والله- فى القرآن- لا يخاطب إلا الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد..

- والقرآن معجزة عقلية، عرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها..

- والمسلم لا يكون مؤمنًا حقاً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به..

- والعقل هو مشرق الإيمان الدينى..

- والسعادة الإنسانية هى من نتائج العقل والبصيرة..

- وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام..

- والسببية.. والسنن والقوانين هى الحاكمة للكون والاجتماع..

obeikandl.com

- وأول واجب على الإنسان هو النظر.. والشك المنهجى هو الطريق إلى اليقين..

- والعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله.. والتصديق بالرسالة.. أما النقل فهو الينبوع فيما بعد ذلك من عالم الغيب.. فالعقل من أشد أعوان الإسلام.. والنقل من أقوى أركان الإسلام..

●●●

● ثم.. من أين جاء عظيم الفاتيكان -أستاذ الفلسفة- بهذه «البدعة» التى زعم فيها أن مسيحيته متفوقة فى العقلانية على الإسلام؟!

ألم يقرأ مقارنة الإمام محمد عبده بين الدينين فى هذا المقام؟.. وكيف أن «**أحد أصول النصرانية - الذى لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت- هو أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن من الدين ما لا يقبله العقل، بمعنى ما يناقض أحكام العقل ومنطقه، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به.. ولقد قال القديس «أنسيلم» [١٠٣٣-١١٠٩م]: «يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر.. فليس الإيمان فى حاجة إلى نظر العقل، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره!!.. بينما أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى، والنظر العقلى هو أساس الإيمان الصحيح..**»[١].

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص٢٦٢، ٢٨٢.

فأين هى العقلانية المسيحية- وهذا كلام القديس «أنسيلم»؟! فضلا عن أن تكون عقلانيتها متفوقة على العقلانية الإسلامية- التى قدمنا الشواهد من مقالاتها؟!

لقد قرر الإسلام- وقرر فلاسفته ومفكروه- أن العقل هو الطريق إلى معرفة الله- سبحانه وتعالى- لأن العقل يتفكر ويتدبر ويتعقل فى الخلق، فيدرك أنه لا بد من خالق متصف بكل صفات الجلال والكمال.. ولذلك، كانت أول فريضة على الإنسان- إسلامياً- هى فريضة النظر! حتى قبل الإيمان بالكتب والنبوات والرسالات!! ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس:١٠١]- ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**﴾ [العنكبوت:٢٠].

● وإذا جاز لبابا الفاتيكان أن يجهل هذا التراث الإسلامى -القديم والحديث- فى العقلانية الإسلامية- المتميزة.. والمتفوقة.. والمتفردة-.. وهذا غير جائز- فكيف له أن يجهل- وهو أستاذ للفلسفة- ما كتبه المستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم» عن تفرد الفلسفة الإسلامية بتأسيسها على الدين الإسلامى.. وذلك عندما قال:

«إن قوة الحركة الاعتزالية- [التى أسست علم الكلام الإسلامى.. والفلسفة الإسلامية قبل عصر الترجمة عن الإغريق]- مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما فى طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامى على أسس

ثابتة من الفلسفة، مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية..»(١).

● ثم.. أين هى العقلانية- يا عظيم الفاتيكان- فى الدين الذى ينتهك قوانين السببية، ويقرر- فى كتابه- أن الإيمان وحده كاف فى أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك، فيتحول الجبل! وأن الصلاة وحدها كافية فى إقدار المصلى على تغيير سير الكواكب، وقلب نظام العالم وتركيبه العنصرى؟!..

● بل أين هى حتى ظلال العقلانية فى الدين الذى لا يزال أهله - حتى القرن الواحد والعشرين- يعتقدون أن «تمتمات» ببعض الكلمات اللاتينية، تحول الخبز والخمر إلى لحم معبودهم ودمه!.. ثم «يتناولونه»- يتناولون معبودهم ويأكلونه.. ليذهبوا- بعد ذلك- بفضلات هذا المعبود إلى حيث يعرف الجميع!!

أين هى العقلانية التى تتحدث عنها وتباهى بها يا عظيم الفاتيكان، وها هو القديس «أوغسطين» [٣٥٤-٤٣٠م] يقول:

«أؤمن بهذا لأنه محال أو غير معقول»!!.. كما يقول القس وهيب الله عطا: «إن التجسيد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس

---

(١) جيوم [الفلسفة وعلم الكلام]- انظر كتاب [تراث الإسلام] ص٣٧٩- ترجمة: جرجيس فتح الله- طبعة بيروت ١٩٧٢م.

والمادة والمصطلحات الفلسفية، ولكننا نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولا»!![1].

أين هى العقلانية عند الذين يقول كتابهم: «اعتقد وأنت أعمى»!!.. «اغمض عينيك ثم اتبعنى»!!

● وإذا كنت -يا عظيم الفاتيكان- لم تقرأ ما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى عن مقام العقل فى الإسلام.. فهل يليق بمثلك أن تجهل ما كتبه علماء الغرب عن هذه العقلانية الإسلامية، ودورها فى انتشار الإسلام؟!.. وما كتبوه عن لا عقلانية مسيحيتك الرومانية، التى غبشتها وأفسدتها الثقافة الهلينية، وملأتها بالأسرار والألغاز... ودور هذه اللاعقلانية فى هزيمة مسيحيتك أمام عقلانية الإسلام؟!

كيف جهلت -يا عظيم الفاتيكان- ما كتبه العلماء الأعلام الغربيون الذين جمعوا بين فقه الإسلام وفقه النصرانية.. ومنهم العلامة سير توماس أرنولد [١٨٦٤-١٩٣٠م]- عملاق الثقافة الإنجليزية.. الذى أورد فى كتابه الفذ [الدعوة إلى الإسلام] شهادات العلماء والفلاسفة واللاهوتيين والمستشرقين الغربيين على عقلانية الإسلام.. وعلى امتلاء المسيحية بالأسرار والألغاز التى يستحيل فهمها حتى على أهل الاختصاص..

---

(١) دكتور أحمد شلبى [مقارنة الأديان] جـ٢ ص١٢٤.

لقد قال العلامة سير توماس أرنولد:

«ولا يستطيع أى فرد أن يوضح الطابع العقلى للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة فى نشر الدعوة، توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفسور «إدوارد مونتيه» [١٨٥٦-١٩٢٧م][١] فى العبارات التالية:

«الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق.. إن لدين محمد كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل.. إن الإيمان بالله والآخرة -فى الإسلام- يستقران فى نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام.

لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول. ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا.. وفى هذا تكمن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود الدعاة المسلمين.

---

(١) مونتيه: مستشرق فرنسى. ترجم القرآن إلى الفرنسية. ومن مؤلفاته [حاضر الإسلام ومستقبله].

وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية- ثم هى تبعًا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادي -أن تمتلك- وإنها لتمتلك فعلا- قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس».

● وغير شهادة هذا العالم الفرنسى- «مونتيه» الخبير بالقرآن والإسلام والخبير بالكاثوليكية- يورد العلامة سير توماس أرنولد شهادة اللاهوتى الإيطالى «الأب مراتشى» Marracci [١٦١٢-١٧٠٠م]- وهو الذى نشر القرآن متنًا وترجمه بالإيطالية.. كما أسهم فى ترجمة العهدين القديم والجديد-.. يورد «أرنولد» شهادة «مراتشى» على عقلانية الإسلام، والتى يقول فيها:

«لو قارن إنسان بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى، أو التى هى -على الأقل- من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة- [العقيدة المسيحية]- وبين عقيدة القرآن،لانصرف عن الأولى فى الحال، وأسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول..».

● وغير هاتين الشهادتين الغربيتين على تميز الإسلام وامتيازه فى العقلانية- بل وتفرده بها- وخاصة إذا ما قورن بالنصرانية- يورد العلامة سير توماس أرنولد، شهادات غربية على أن هذه العقلانية الإسلامية هى السر فى هذا الانتشار الذى شهدته هذه العقيدة الإسلامية..

obeikandi.com

يورد شهادة الأمير والمستشرق الإيطالى «كايتانى- ليون» Caetani [١٨٦٩-١٩٢٦م] وهو الخبير فى الإسلام والدراسات الإسلامية.. وصاحب الإنجازات المتميزة فى تحقيق التراث الإسلامى- التى يقول فيها:

«إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى.

أما الشرق، الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها.

فلما أهلَّت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد المسيحية الشرقية، التى اختلطت بالغش والزيف، وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب»..

obeikandi.com

● وغير هذه «الشهادة - الوثيقة» لكايتانى- على أن عقلانية الإسلام هى السر فى انتشاره السريع، وانتصاره على اللاعقلانية المسيحية.. قدم «أرنولد» شهادة الفيلسوف الأمريكى «جون تايلور» Cunon Tuylor [١٧٥٣-١٨٢٤م].. والتى يقول فيها:

«إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر هذا الدين الجديد بهذه السرعة فى إفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد فى هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبية فى السماء، وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم، فأزال الإسلام- بعون من الله- هذه المجموعة من الفساد والخرافات.

لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات

الأخـلاقيـة الضـالة وسـفسطـة المنازعين فى الدين، وأحل الشـجـاعة مـحل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسـانية إخاء، ووهـب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية،التى تقوم عليها الطبيعة البشرية»(١).

●●●

إذا كان عظيم الفاتيكان -أستاذ الفلسفة- قد جهل عقلانية الإسلام- كما جاءت فى مصـادره-فلماذا تجاهل ما كـتبه علماء الغـرب فى هذا الميدان.. وهو شهير ومنشور بمختلف اللغات الغربية التى يتقنها عظيم الفاتيكان؟!

أم أن «الغـرض» هو «المرض»!.. الذى جعل الـرجل يتجـاهل هذا «المقال الغربى» فى عقلانية الإسلام.. ولا عقـلانية المسيحية التى انتصر عليها الإسلام؟!..

●●●

● وياليت الأمر قد وقف بهذا البابا عند «الجهل» و «التجاهل»!!..

ذلك أن بابا الفاتـيكان -بنديكتوس السادس عـشر- قـد استند فى حكمه على الإيمان الإسلامى بأنـه لا عقلانى ولا منطقى.. وأنه «إيمان وثنى أعمى»!.. استند إلى نص منسوب إلى الإمام الفـيلسوف والفقيه ابن حزم الأندلسى [٣٨٤-٤٥٦هـ- ٩٩٤- ١٠٦٤م].. فقال:

---

(١) أرنولد [الدعـوة إلى الإسلام] ص ٨٩- ٩١. ترجـمة: دكتـور حسن إبراهيـم حسن، دكتور عبد المجـيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعـة القاهرة ١٩٧٠م. وانظر كتابنا [الإسلام فى عيون غربية] ص ٩٩، ١٠٠، ٨٧، ٨٨.

obeikandi.com

«لقد ذهب ابن حزم إلى حد الإقرار بأن الرب الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة، وأنه ما من شيء يلزمه بكشف الحقيقة لنا..».

ثم علق البابا -فى محاضرته- على هذه «الفكرة» المنسوبة لابن حزم، فقال- مقارنًا هذه «الفكرة» باعتقاده المسيحى-:

«إن القول الفصل فى النقاش حول التحول العقائدى باستخدام العنف هو أن عدم التصرف وفقًا للعقل هو أمر مناهض لطبيعة الرب. ولكن بالنسبة للتعاليم الإسلامية فإن الرب مطلق السمو، فمشيئته لا تتماشى مع أى من خصائصنا، بما فيها العقلانية».

ثم خلص- هذا البابا- إلى وصف الإيمان الإسلامى بأنه إيمان وثنى أعمى وبنص عبارته:

«ففيما يتعلق بإرادة الله [فى الإسلام]- فإنه ينبغى علينا التعبد بشكل وثنى أعمى»!!

وأمام هذا الحكم الفاجر- وليس فقط الجائر- على الإيمان الإسلامى.. لا بد من وقفات:

● إن بابا الفاتيكان -بنديكتوس السادس عشر- هو أستاذ للفلسفة، مارس العمل الأكاديمى وتقاليد البحث العلمى الأكاديمية قبل أن ينخرط فى سلك الكهنوت.. ولقد تولى- فى الفاتيكان- قبل البابوية «عمادة كلية الكاردينالات».. ومن تقاليد البحث العلمى- التى يعرفها حتى المبتدئون فى هذا الميدان- الرجوع فى الاستشهاد بالنصوص إلى

obeikandl.com

مصاردها الأصلية، فهل صنع ذلك بابا الفاتيكان- وهو أستاذ الفلسفة- عنـدما اسـتشهد بابن حزم، وأسس حكمـه على الإيمان الإسلامى بأنه لا عقلانى ووثنى أعمى، بناء على هذا «الشاهد» الذى استشهد به؟!.

إن أستاذ الفلسـفة- الحبر الأعظم للفاتيكان- قد خـان أمانة البحث العلمي.. واستند إلى «شهادة شاهد مزور وكاذب»!!..

فهو لم يرجع إلى ابن حزم- وكتبه مـترجمة إلى العديد من اللغات الغربية- وإنما اعتمد- هذا الأسـتاذ للفلسفة- على «منهج العنعنات».. فاستند إلى مسيحى لبنانى هو «عادل تيودور خورى».. الذى لم يرجع هو الآخر إلى المصادر الأصلية لابن حزم..

وإنما أخذ عـن باحث فرنسى فى الإسـلاميات، هو «أرنـادليز»!.. وهذه سقطـة وخيانة لتقاليـد البحث العلمى ما كان يليق ببابا الفاتيكان - أستاذ الفلسفة- أن يقع فيها.. خـصوصًا عندما يتحدث فى محاضرة فلسفية- عن عـلاقة الإيمان بالعقل- فى الجامعة التى كـان يدرس فيها الفلسفة.. وإلى نخبة من الأسـاتذة الجامعيين الأكاديميين!.. ثم يرتب على هذه السقطة وشهادة الزور ذلك الحكم الجاهل والفاجر على الإيمان الإسلامى- الذى يتدين به أكثر من ملـيار ونصف المليارمن البشر- وهو الإيمان الذى يقض انتشاره مضاجع البابا حتى فى عقر داره الأوربية!

● ولقـد ظننت، فى بادئ الأمـر -لحسـن ظنى بأمـانة الرجل الأكاديميـة- أن الأمر لا يعدو أن يـكون إساءة فهم منه للفكـرة المنسوبة لابن حـزم.. وظننت أن ابن حزم يدافع عـن طلاقة المشيـئة الإلهيـة

والقدرة الإلهية فى مواجهة المعتزلة الذين «أوجبوا» على الله فعل الصلاح والأصلح- الأمر الذى يوهم أنهم قد حدوا من طلاقة القدرة والمشيئة الإلهية- وأن الأمر لا يعدو الرفض- من ابن حزم- لتقييد المشيئة الإلهية والقدرة الربانية. .

لكن. . عنَّ لى أن أختبر مدى الصدق والأمانة فى هذا الذى نسبه البابا إلى ابن حزم، نقلا عن «الأساتذة» الكاثوليك - عادل تيودور خورى. . وأرنادليز.

ولم يكن هذا الاختبار بالأمر السهل أو الميسور. . وذلك لأن البابا - أستاذ الفلسفة- قد وقع فى سقطة علمية أخرى عندما نسب كلامًا لابن حزم، دون أن يقول لنا: ما هو الكتاب الذى قال فيه ابن حزم هذا الكلام؟

إن لابن حزم عشرات الكتب. . وبعض هذه الكتب تبلغ مجلداتها العشرات ففى أى كتاب؟ . . أو جزء؟. . أو صفحة؟. . وفى أية طبعة من الطبعات يمكن العثور على هذا الذى نسبه البابا إلى الإمام ابن حزم؟. . بل. . وفى أية لغة من اللغات التى ترجم إليها فكر ابن حزم تم النقل عنه من قبل الذين نقل عنهم بابا الفاتيكان؟؟!.

لكن خطر القضية. . وخطورة الحكم الذى حكم به البابا- أستاذ الفلسفة- على الإيمان الإسلامى، جعلنى أستعين بالخبرة فى التعامل مع المصادر. . ومظان القضايا والأفكار. . حتى هدانى الله فعثرت على

obeikandl.com

المصدر الذى تحدث فيه ابن حزم حول هذا الموضوع- فى كتابه [الفصل فى الملل والأهواء والنحل]. .

ولقد كانت المفاجأة الأعظم عندما اكتشفت الكذب البواح والاغتيال الفكرى الصريح الذى مارسه الحبر الأعظم- و«الأساتذة» الكاثوليك الذين نقل عنهم -ضد أفكار ابن حزم حول طلاقة المشيئة الإلهية ولا محدودية القدرة الإلهية. .

منهج الاغتيال الفكرى على طريقة [لا تقربوا الصلاة] و[ويل للمصلين]!!. .

فابن حزم لم يرد فى كلامه ولم يخطر بباله أن يقول: «**إن الله لم يلتزم حتى بكلمته الخاصة، وإنه ما من شىء يلزمه بكشف الحقيقة لنا..**». . ومن ثَمَّ لم يقل إن مشيئة الله منفكة عن العدل والمنطق المعقول والصلاح والأصلح. . وإنما ميز بين قدرة البشر المحدودة. . وبين قدرة الله التى لا تحدها حدود. . وأكد- فى الوقت ذاته- بالنصوص الصريحة اتساق المشيئة الإلهية مع الحكمة والرحمة والعدل والمنطق والعقل. . لأنه -سبحانه- مع طلاقة مشيئته وقدرته، لا يفعل الظلم ولا الجور ولا العبث ولا الكذب، مما لا يليق بذاته المتصفة بصفات الجلال والجمال والكمال. . ومن ثَمَّ فلا يصدر عنه -سبحانه- ما ينافى الحكمة والعقل والمنطق. . لأن فعل ذلك هو من صفات المخلوقين، وليس من صفات الخالق. . وهو -سبحانه- الذى كتب على نفسه الرحمة. . والذى لا يظلم أحدًا. . والذى لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر. . والذى أحسن كل شىء خلقه وقدره تقديراً. .

لقد كشفت نصوص ابن حزم عن حقيقة الإيمان الإسلامى- الإيمان بمشيئة إلهية وقدرة ربانية لا تعرف الحدود.. ولا تتناهى.. وفى الوقت ذاته منزهة عن مجاوزة الحكمة والرحمة والعدل والمنطق والعقلانية بكل ما تعنى هذه المصطلحات عند الذين يفقهون ويعقلون.. وحتى تتكشف «العورة الفكرية» و«السقطة المنهجية» و«الكذبة الكبرى» التى سقط فيها «أستاذ الفلسفة» والحبر الأعظم للفاتيكان- هو وحزبه- نورد نصوص الإمام ابن حزم حول القدرة الإلهية والمشيئة الربانية فى التصور العقدى للإسلام والمسلمين.. وهو فى هذه النصوص يقول لمن يسأل:

- هل طلاقة القدرة الإلهية- القادر على كل شىء-تجعله فاعلا للكذب مثلا- وهو فى مقدوره؟

فيقول ابن حزم- فى جواب هذا السؤال-:

«إن الله تعالى فعال لما يشاء، وعلى كل شىء قدير.. [وكان الله عليمًا قديرًا] فأطلق تعالى لنفسه القدرة، وعم ولم يخص، فلا يجوز تخصيص قدرته بوجه من الوجوه.. فإن قال قائل: فما يؤمنكم إذ هو تعالى قادر على الظلم والكذب والمحال من أن يكون قد فعله أو لعله سيفعله فتبطل الحقائق كلها ولا تصح، ويكون كل ما أخبرنا به كذبًا؟».

ثم يجيب ابن حزم على سؤال هذا القائل:

«وجوابنا فى هذا.. أن الله تعالى قادر عليه ولكن لا يفعله.. وأنه تعالى لا يجور ولا يكذب.. ولا يظلم، وأنه تعالى قد أخبرنا بأنه قد تمت كلماته

صدقًا وعدلا لا مبدل لكلماته، وأنه تعالى قادر، وليس كل ما يقدر عليه يفعلــه.. وكل من يــدين بأن الله حق مجـمعون على أنه تـعالى لا يكذب ولا يظلم.. وقد صح إطباق جميع سكان الأرض قديمًا وحديـثًا، لا نحاشى أحداً، على أن الله تعالى لا يظلم ولا يكذب..

ولقد قام البرهان على أنه تـعالى لا يشبـهه شيء من خلقـه فى شيء من الأشياء، والخلق عاجزون عن كثير من الأمور، والعجز من صفة المخلوقين، فـهو منفى عن الله عـز وجل جـملة، وليس فـى الخلق قـادر بذاته على كل مسئول عنه، فوجب أن البارى تعالى هو الذى يقدر على كل مسئول عنه. وكذلك الكذب والظلم من صفات المخلوقين، فوجب يقينًا أنهما منفيان عن البارى تعالى.

فهذا هو الذى آمننا من أن يظلم أو يكذب أو يفعل غير ما علم أنه يفعله، وإن كان تعالى قادراً على ذلك»(١).

هذه هى نصوص الإمام ابن حزم الأندلسى، حول الإيمان الإسلامى بطلاقة المشيئة الإلهيـة، ولا محدودية القدرة الإلهية.. وفى الوقت ذاته تنزيه الذات الإلهـيـة عن كل ما لا يلـيق بالحكمة المـطلقة.. والعـدل المطلق.. والرحمة المطلقة..

لقد تنزه -سبحانه- عن العجز البشرى.. وعن فعل ما لا يليق بذاته المنزهة.. لقد خلق كل شيء بقدر..وكتب على نـفسه الرحمة.. وهو

(١) ابن حـزم [الفصل فـى الملل والأهواء والنحل] جـ٢ ص١٦٢ ص١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨- طبعة مكتبة محمد على صبيح وأولاده ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

obeikandl.com

﴿ الَّذي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]- ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ومن ثَمَّ فلا تناقض بين طلاقة قدرته -سبحانه- وبين الحكمة والمنطق والعقل- كما يفهمها الحكماء والعقلاء.

تلك هى الحقيقة التى «جهلها- وتجاهلها» بابا الفاتيكان- أستاذ الفلسفة- فافترى على الإمام ابن حزم، ونسب إليه ما لم يقله.. بل افترى عليه عكس ما قاله!!..

لقد قال ابن حزم: «لقد أخبرنا الله تعالى بأنه قد تمت كلماته صدقًا وعدلا لا مبدل لكلماته».

وافترى البابا على ابن حزم عندما نسب إليه عبارة: «إن الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة»!!.

وهكذا بلغ الافتراء حد الفجور.. ثم صعد به إلى حيث عممه على الإيمان الإسلامى، فوصفه بأنه «إيمان وثنى أعمى»!!.. فلم يقف الافتراء عند ابن حزم.. وإنما عممه البابا على الإسلام.. وكل المؤمنين بالإسلام!..

وهكذا تأسس الافتراء الغريب والعجيب على فضيحة علمية من «الوزن الثقيل»!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

●●●